بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، ثم أما بعد :-

في العصور الحديثة ،كان الغزو النابليوني لمصر بداية لتغيرات عميقة في المنطقة ، هذا الغزو العسكري الذي كان تؤزه دوافع الاستيلاء والاستعلاء معاً ، فكانت رغبته في فرض الصبغة الأوروبية الفرنسية – خاصة – لتكون نموذجاً بديلاً في الثقافة والحضارة .. و عبر صراعات طويلة استتب الأمر أخيراً للهيمنة الغربية ..

فظهر تغريبيون كثيرون في ثوب إصلاحيين ، من أمثال رفاعة الطهطاوي و علي مبارك و خير الدين التونسي و جمال الدين الأفغاني ورفيق العظم وغيرهم .. وكان هؤلاء بمثابة قنطرة عبر من فوقها حصان طروادة الكبير ، الذي امتلأ عن آخره بأصناف وأشكال من عصابات المثقفين الكبار ..

فإن هذه الحرب الشرسة على الإسلام والمسلمين .. وعلى تعاليم هذا الدين الحنيف .. وعلى الشرع الحكيم .. وعلى أبناء هذه الصحوة المباركة .. وعلى رجالها .. وعلى الدعاة المصلحين .. وعلى الفتاة المسلمة .. ليقوم بها و ينفذها الكثير والكثير .. لكن هناك شخصيات بارزة شاركت و كانت الخنجر الذي طعن الإسلام من الخلف .. إنهم من المحسوبين على الإسلام وأهله .. منهم المفكرين و الأدباء والشعراء و الممثلين والصحفيين و غيرهم الكثير ..

ونحن في هذه الوقفات مع هؤلاء الكتّاب .. و المصلحين !! - بزعمهم – والمفكرين .. والصحفيين و الشعراء .. و من يتسمّون بالفنانين .. و هناك بعض المؤرخين .. نتعرّض لهم ونتعرف عليهم عن قرب .. نطلع على معتقداتهم وعلى ولائهم .. على مذاهبهم و مختلف مشاربهم ..

فهم يحكمون على أنفسهم بما ينطقون و بما يكتبون .. فمؤلفاتهم تنضح بما في قلوبهم .. وقد لا نحتاج إلى كثير من التعليق على أقوالهم .. و قد نشير فقط إشارات إلى بعض المواضع .. و قد نقف معهم بعض الوقفات السريعة .. ليعلم المسلم و ليتعرف على عقيدة و ولاء و اتجاه هؤلاء الكتّاب .. و أيضاً لتتكون لديهم فكرة عن الفكر الذي يحمله هؤلاء .. ليعلموا بعدها و ليعرفوا عمّن يأخذون الفكر والأدب والعلوم والثقافة ، فإن جراح الأقلام قد تفوق جراح السهام .

وكما قيل : إن لم تكن أسيافهم مشهورة *** فينا فتلك سيوفهم أقلام .**

ولذا وجب التحذير .. و تحتم التنبيه .. وكما قيل :
من الدين كشف الستر عن كل كاذب ** وعن كل بدعيّ أتى بالعجائب**
ولولا رجال مؤمنون لتهدمت ** صوامع دين الله من كل جانب .**

و قد اخترت مجموعة من الشخصيات .. ليكونوا تحت المجهر .. نتعرف عليهم عن قرب .. و قد أسميت هذه المقالات بـ :
(شخصيات تحت المجهر) ، و ستكون على حلقات أسأل الله أن يعين على إكمالها ..

والآن نأتي إلى الشخصية الأولى .. طه حسين .. عميد الأدب العربي !!

هو طه حسين علي سلامة ، أديب مصري متذبذب ، له آراء خبيثة جداً ، تدل على خبث طويته ، ولد سنة (1307هـ) ، و رام الحصول على الدكتوراه من الأزهر ، غير أنه لم يستطع ذلك ، فنقم على الأزهر وعلى علمائه .

طه حسين .. ذلك الكاتب الذي أطلق لقلمه العنان وأعطيت له الوصاية للتحدث باسم الأدب العربي ، فانطلق مدفوعاً بالغرور والاستعلاء ، يشوه وجه المنهج الإسلامي بإثارة الشبهات ، وإذاعة أدب المجون ، وإشاعة ما يظنه نقائص و نقائض ، في الوقت الذي عمل فيه على إبراز الكمالات في الفكر الوثني اليوناني القديم ، والفكر الإلحادي الغربي الحديث ، خاصة في جوانبه المادية والإباحية ..

و في سبيل ذلك كان أول من نقل سموم (مرجليوت) في الشعر الجاهلي ، و (جولدسيهر) في العقيدة والشريعة ، و (دور كايم) في التاريخ .. فأثبت في كل هذا أنه جمع بين نقيضين في آن ، و هما الأمانة والخيانة : فكان أميناً و فياً لأساتذته المستشرقين من النصارى واليهود ، خائناً لله و لرسوله وللمؤمنين ..

و تمشياً مع موضوعية المقال لن أتوسع في عرض شذوذاته وانحرافاته ، ولن أطيل في الرد على شبهاته .. و حسبي أن أقدم صورة واضحة عن خطورة منهجه ، وأن يعلم المسلمون مكامن الخبث المبثوثة في كتبه و بخاصة الإسلامية منها .. و هذه بعض آرائه و معتقداته المبثوثة في كتبه ومقالاته :-

1 – الدين خرج من الأرض ولم ينزل من السماء .

2 – الإسلام بقي على هامش حياة المسلمين الأولى .

3 – القرآن قابل للنقد باعتباره كتاباً أدبياً .

4 – السيرة النبوية فيها أساطير ، و هي قابلة لإلصاق أساطير أخرى بها .

5 – تعقب أخبار الزنادقة والفساق والفجرة .. أدب رفيع ..

6 – القرن الثاني للهجرة (عصر التابعين و تابعيهم) كان عصر شك و فسوق .

7 – الحضارة الغربية يجب أن تؤخذ بخيرها و شرها و حلوها و مرها .

8 – وجود إبراهيم و إسماعيل – عليهما السلام – أمر مشكوك فيه ، ولو ذكروا في التوراة والإنجيل والقرآن .. فلسنا ملزمين بتصديق أي منها .

9 – الفتح الإسلامي لمصر ، كان استعماراً كاستعمار الرومان والفرس والإنجليز . راجع تفاصيل هذه الانحرافات بالتوثيق في كتاب (محاكمة فكر طه حسين) للأستاذ أنور الجندي .

هل كان طه حسين مسلماً حين تلفظ بكل ما سبق ؟! أم أنه كان ..

هناك رأي شاع وانتشر يقول : إن طه حسين قد تنصر بالفعل في فرنسا !! ، حيث ينقل هذا الخبر الأستاذ جابر رزق في كتابه (طه حسين .. الجريمة والإدانة) استناداً إلى مذكرات زوجة طه حسين النصرانية (سوزان) و شهادة سكرتير طه حسين لأربعين سنة (فريد شحاته) و هو نصراني أيضاً .

و سؤال آخر : هل تاب طه حسين قبل موته ؟!

أفضى طه حسين إلى ربه بعد أن رده الله سبحانه وتعالى إلى أرذل العمر .. أفضى إلى ربه يحمل أوزاره وأوزار الذين أضلهم دون أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً .. أفضى إلى ربه لا ينفعه ثناء المستشرقين ، ولا تكريم الملاحدة العلمانيين ، ولا الأوسمة

والألقاب العلمية التي حصل عليها .. أفضى و ظن أنه مبدع مجدد .. في حين أنه كان متبع مقلد ..

تصدى له رغم علو مكانته واحتضان النظام له عدد من الدعاة و الذين جاءوا بنصوص من آرائه وأقواله .. فظهرت أنها ترجمة حرفية لأقوال أستاذه المستشرق (مرجليوت) .. تصدى له علماء الأزهر - يوم كان الأزهر حراً - ، فأفتوا بردته عن الإسلام و طالبوا بمصادرة كتابه (الشعر الجاهلي) .

وبعد هذا .. هل صحيح أن طه حسين رجع عما كان قد قاله في كتبه و تاب إلى الله قبل موته ؟!

هكذا زعم بعض الكتّاب ، فقال أحدهم : عدل طه حسين عن رأيه في الشعر الجاهلي بعد أن قرأ كتاب الدكتور أحمد الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي) . و قال آخرون : كان طه حسين قبل موته معتكفاً على سماع القرآن مرتلاً .

قلت : لم يذكروا كيف علموا بذلك و لا مدى صحة هذا الخبر .. والذي يهمنا في هذا الشأن :هل كتب طه حسين بحثاً أو مقالاً يعلن فيه رجوعه عن أقوله التي أثارت ضجة كبيرة ، و كفره علماء المسلمين بسببها ؟!

هل أعلن في الإذاعة أو في صحيفة من الصحف ، أو أمام ملأ من الناس عن تراجعه عن آرائه التي وردت في كتابه الشعر الجاهلي مثلاً ؟!

فليأتنا أنصاره ومحبوه بمقال واحد بل بعبارة واحدة قالها .. فإن قالوا : لقد كتب كلاماً طيباً في مرآة الإسلام ، قلنا : و في كتابه على هامش السيرة كتب كلاماً طيباً وآخر يقطر خبثاً .. ومثل هذه الأساليب الملتوية معروفة ومبثوثة في كتب المستشرقين وتلامذتهم ..

وإن كان المعجبون بطه أو الذين يحسنون الظن به قبل موته بقليل عاجزون عن إبراز أي دليل ، فنحن نملك دليلاً على أنه لم يتراجع عما قاله من زندقة وإلحاد ، قال الدكتور محمد الدسوقي سكرتير طه حسين : (لقد رافقت العميد في العقد الأخير من عمره ، و قرأت له كثيراً من المؤلفات العربية القديمة والمعاصرة ، و جاء ذكر الشعر الجاهلي أكثر من مرة فما سمعت منه إلا شكه في هذا الشعر و طعنه في صحته ، و قد قال لي يوماً

إنه لا يعيد النظر في مؤلفاته عند إعادة طبعها ، غير أنه أضاف إلى هذا قائلاً : إن هناك كتاباً واحداً أريد أن أغير فيه بعض الآراء وهو (مستقبل الثقافة في مصر) فقد انتشر التعليم وأصبح مجاناً في جميع مراحله كما قويت الصلات العلمية والأدبية بين البلاد العربية على الرغم من الخلافات بين بعض حكامها ، و هذا يعني أن كتاب الأدب الجاهلي لا رجوع عما اشتمل عليه من آراء ، و بعد فإن موقف طه حسين من الشعر الجاهلي لا يمكن الجزم بأنه عدل عنه ، اعتماداً على كلمة قالها في مناسبة إهداء بعض المؤلفات إليه ثم يلزم الصمت أكثر من عشرين عاماً دون أن يكتب عن رأيه الجديد ، و لذا أكرر ما أومأت إليه أنفاً من أن العميد لم يرجع عن رأيه في الشعر الجاهلي والله يقول الحق و هو يهدي إلى سواء السبيل . أهـ . راجع : مجلة العربي الكويتية ، العددان : (239 ، 243) .

ونحن لا نعرف عن طه حسين إلا عداوته للإسلام والمسلمين ، و تقليده الفج لأساتذته المستشرقين ، لقد كان طه حسين علماً من أعلام الكفر و الإلحاد .. ورمزاً من رموز الشر والضلالة .. و عميلاً من عملاء الغرب .. و داعية من دعاة التبرج والاختلاط والفساد .. أسأل الله تعالى أن يجزيه بما يستحق فهو وحده الذي يعلم نوايا عباده و ما تخفيه صدورهم .

للمزيد :

راجع كتاب طه حسين في ميزان العلماء والأدباء لمحمود مهدي الاستانبولي .
دراسات في السيرة النبوية لمحمد بن سرور (ص 211 – 261) .
محاكمة فكر طه حسين ، أنور الجندي .
طه حسين .. الجريمة والإدانة ، جابر رزق .

جمال الدين الأفغاني !!

إن مما لا شك فيه أن مؤسس المدرسة الإصلاحية و أستاذها الأول جمال الدين الأفغاني ، قد اختلف الناس في أمره اختلافاً كبيراً جداً :-

اختلفوا في موطنه و ولادته ، هل هو أفغاني كما زعم أم إيراني ؟!
واختلفوا في مذهبه ، هل هو شيعي رافضي ، أم سني حنفي ؟!
واختلفوا في تصوراته و معتقداته ، هل هو داعية مصلح ، أم هو ملحد مفسد ؟!

إلى غيرها من التساؤلات والنظريات ..

أقول و بالله التوفيق : هو جمال الدين الأسد آبادي الفارسي ، الذي اشتهر بين الناس بالأفغاني .
ولد عام (1254هـ/1838م) في همدان – من أعمال إيران – في قرية أسد آبادي ، من أسرة شيعية .

درس في قزوين ، ثم انتقل به أبوه إلى طهران و عمره (12) سنة ، و جالس كبار علمائها و أخذ عنهم العلم ، ثم رحل إلى النجف مع والده .. فمكث فيه أربع سنوات ، درس فيها العلوم الشرعية والفلسفة والمنطق و الرياضة و علم النجوم والطب و الكيمياء ، وأنهى دراسته و عمره لا يتجاوز (16) سنة .

و مما ينبغي التأكيد عليه ، أن جمال الدين كان شيعياً ، و قد أعد في النجف ليلعب دوراً خطيراً بين أهل السنة في العالم الإسلامي ، و هناك أدلة كثيرة ، منها :-

1- أنه بدأ دراسته في قزوين ، و هي من مدن الشيعة في إيران ، و كان والده أحد المدرسين في تلك المدارس ، و يتحدث جمال الدين عن هذه المرحلة و يعترف بأنه لبس العباءة والعمامة ، و تتلمذ على يد أكبر علماء الشيعة فيها . واعترف أيضاً بأنه انتقل إلى العراق ليتابع دراسته في العتبات المقدسة – أي في النجف – والتي يؤمها طلاب العلم الشيعة من جميع بلدان العالم الإسلامي .

2- من أشهر أساتذته ، آقا خان صادق مرتضى ، أحد مراجع الشيعة في النجف ، و ميرزا محمد المجتهد ، و الحافظ دراز ، و حبيب الله القندهاري ، فهؤلاء جميعهم من مراجع الشيعة وآياتهم المعروفين في تلك المرحلة .

3- و يدل على أنه شيعي فارسي قول الشيخ محمد عبدة في فاتحة تعريبه لرسالة الرد على الدهريين ، فيقول : أن السيد جمال الدين و إن كان في الحقيقة فارسياً ، فقد انتسب إلى الأفغان لأمرين :-
أ - أن يكون من السهل عليه الظهور بمظهر السني لا الشيعي .
ب - أن يستطيع الخلاص من رقابة الحكومة الإيرانية لرعاياها في الخارج .

4 - يقول عبد المهدي فلاح الأصفهاني معلقاً على رسالة وجهها إليه جمال الدين ، وأمره بنشرها بعد موته ، فيقول : إن مشاهير الأحرار الإيرانيين اضطروا في عهد الشاه ناصر الدين و عماله إلى هجر وطنهم و الالتجاء إلى البلاد الشرقية الإسلامية هرباً من الظلم ، فلقب بعضهم – كالسيد جمال الدين – بالأفغاني ، و هو في الحقيقة إيراني صميم .

5 - صدر في برلين عام 1926م كتاب بالفارسية في سيرة الأفغاني بقلم الميرزا لطف الله خان ، ويدعي المؤلف أنه ابن أخت الأفغاني ، وأنه اجتمع به في طهران عند ذهاب الأفغاني إليها عام 1886م ، و يحتوي الكتاب على صور فوتوغرافية واضحة تجمع الأفغاني و الميرزا لطف الله خان مع زمرة من رجال الدين الإيرانيين ، و قد ترجم الكتاب إلى العربية في مصر عام 1957م ، و من يقرأ الكتاب يشعر أنه لابد أن يحتوي على شيء من الحقيقة قليلاً أو كثيراً إذ من المستبعد أن يختلق المؤلف صلته القرابية بالأفغاني على هذه الصورة المكشوفة ، و إذا كان الأفغاني أفغانياً حقاً فلماذا لم يظهر أحد من أقاربه الأفغانيين حتى الآن فيكذب المؤلف أو يتحداه على وجه من الوجوه ؟!

6 – عندما اشتد العداء أخيراً بين الشاه و الأفغاني ، أخذ أعوان الشاه يشوهون سمعة الأفغاني ، فأشاعوا عنه أنه بابي ، و أنه غير مختون ، و لكنهم لم يشيعوا عنه أنه سني أو أفغاني ، و كان من السهل عليهم أن يفعلوا ذلك لو كان الأفغاني أفغانياً .

7 عندما نفي الأفغاني من مصر لم يأت لتوديعه في السويس سوى القنصل الإيراني ، و نفر من التجار الإيرانيين الساكنين في مصر .. فما هو السبب الذي جعل أولئك الإيرانيين يفعلون ذلك ، إن لم تكن لهم مع الأفغاني رابطة خاصة .

هذه بعض الأدلة التي تؤكد أن جمال الدين إيراني و ليس أفغانياً ، و أنه شيعي رافضي كما زعم بعض طلبته ، و لولا خشية الإطالة لسردت أدلة أخرى .

أسفاره و مغامراته ..

يعد جمال الدين الأسد آبادي من الشخصيات التي لايزال الغموض يكتنفها والسرية تحوط معظم تصرفاته ، كان ذا علاقة مريبة

باليهود والنصارى والمرتدين ، و صلة وثيقة بالمحافل الماسونية ، بل رئيساً لأحدها وهو محفل كوكب الشرق في القاهرة .
قال عنه سليم العنجوري في شرح ديوان سحر هاروت عند ترجمته له : إنه سافر إلى الهند وهناك أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ ، وتبحر في لغة السانسكريت أم لغات الشرق ، وبرز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم ، زاعماً أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بطرق وتحول طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفضاء ويتجاذبها الجو ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهم نشأ من ترقي الإنسان في تنظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات . انظر : تاريخ الأستاذ الإمام (1/43) .

ووصف الشيخ رشيد رضا الأفغاني بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود التي تشتبه فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية ، وقال : إن كلامه في النشوء والترقي يشتبه بكلام داروين . نفس المرجع (1/79) .

والآن نأتي إلى رحلاته و تنقلاته ..

1- دخل بلاد الأناضول مرتين ، أخرج منها في المرة الأولى إثر محاضرة ألقاها في دار الفنون ، اتهم خلالها بالإلحاد والمروق من الدين ، حيث رماه علماء الأستانة بالإلحاد من أجل قوله إن النبوة صناعة مكتسبة ، واتهمه بعض علماء الأزهر بالإلحاد أيضاً ، ومنهم الشيخ عليش . انظر : دعوة جمال الدين الأفغاني (ص 335) .

2- دخل مصر مرتين ، أنشأ في المرة الثانية الماسونية الفرنسية ، و ألف الأحزاب المشبوهة ، التي تضم مختلف الأديان ، كالحزب الوطني الحر ، و مصر الفتاة ، و لعب دوراً مهماً في عزل الخديوي إسماعيل ، و تولية ولي عهده توفيق الذي كان عضواً في المحفل الماسوني الفرنسي الذي يرأسه جمال الدين .

3- بعد أن طرد من مصر ذهب إلى الهند ، ثم بعدها غادر إلى باريس عام 1300هـ ، و كان له فيها نشاط حافل ، من أهمه الاتصال بالجمعيات والمنظمات الثورية ، أمثال جمعية الاتحاد و الترقي ، و جمعية العروة الوثقى السرية ، استمرت إقامة جمال

الدين في ديار الغرب سبع سنين منها أربع سنوات في روسيا القيصرية ، و ما تزال أخبار إقامته فيها غامضة .

4- جرى لقاء بين الشاه ناصر الدين شاه إيران و جمال الدين في ألمانيا ، و عرض الأول على الثاني منصب رئيس الوزراء ، فوافق جمال الدين وغادر أوروبا قاصداً طهران سنة 1307هـ و استلم مهامه ، لكن سرعان ما احتدم الصراع بينه و بين الشاه ، مما اضطر جمال الدين إلى الالتجاء إلى (مقام عبد العظيم) - و هو من أحفاد الأئمة ، و مقامه حرم و من دخله كان أمناً !!! – فمكث هناك سبعة أشهر .. ثم بعدها اقتحمت السلطات هذا المقام و تم القبض على جمال الدين و أخرج إلى العراق .

و مما يجدر ذكره أن إيران في ذلك العهد لا يمكن أن يقع اختيار قادتها على عالم من علماء السنة من بلاد الأفغان ليكون الرجل الثاني أو الثالث في البلاط .. فعندما وقعت الخلافات بينه و بين الشاه لم يقل أحد من رجال البلاط أو من علماء الشيعة أن الأفغاني دخيل على إيران أم عميل من عملاء الخليفة العثماني لاسيما و هم يعرفون صلاته بآل عثمان و لكن الذي قيل عنه : بابي مفسد .

5- يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته عن جمال الدين : وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني ، و إنجليزي يدعى بلنت .. و كنت أعرف جمال الدين هذا عن قرب ، و كان في مصر و كان رجلاً خطراً اقترح علي ذات مرة أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى ، و كنت أعرف أنه غير قادر .. و من المحتمل جداً أن يكون الإنجليز قد أعدوا الرجل لاختباري .

لماذا أخفى نسبه ؟!

كانت إيران وكراً من أوكار التآمر ضد الخلافة الإسلامية ، و كان قادتها – ولا يزالون – يستعينون بأعداء الإسلام من أجل تفتيت وحدة المسلمين .

و كان المسلمون السنة يرتابون من نوايا و أهداف كل عالم شيعي إيراني ، ولا يثقون به .. و كان لجمال الدين من الخبث و الدهاء بحيث لا تخفى عليه مثل هذه الأمور ، و طالما أعد نفسه ، أو أعده أعداء الإسلام ليلعب دوراً مشبوهاً في تاريخ أمتنا الحديث – كما لعب ابن سبأ نفس الدور في صدر الإسلام - ، إذاً لا

بد أن يقدم نفسه على أنه عالم من علماء الأفغان ، و أنه حنفي المذهب ، و هذا الذي كان .

و ختاماً إخوتي كانت تلك نبذة مختصرة عن حياة و مغامرات أستاذ المدرسة الإصلاحية و مؤسسها الباطني الخطير جمال الدين الأسد آبادي الفارسي ، و أرجو أن أكون قد وفقت في ذكر بعضاً مما يجهله الناس عن هذا الرجل .

<u>أنظر للمزيد :</u>

طبقات أعلام الشيعة لآغا بزرك (1/312) .
دراسات في السيرة النبوية ، محمد سرور بن نايف زين العابدين ، (ص 265- 274) .
و مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب (ص 67) .
دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ، تأليف مصطفى فوزي بن عبد اللطيف ، نشر دارطيبة .
مقدمة العروة الوثقى للشيخ مصطفى عبد الرزاق .
جمال الدين الأسد آبادي ، للميرزا لطف الله خان .
تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ محمد رشيد رضا .

<u>نجيب محفوظ</u>

و تستمر الأمواج و تصمد الصخرة .. و تتنوع الظواهر .. فهناك ظاهرة تتكرر كل حين في شكل موجات عاتية من الهجوم على ثوابت هذه الأمة وعقائدها ومناهجها .. هي موجات و هجمات تتحد في غاياتها ، وإن كانت تختلف في أساليبها و في أدواتها و رموزها .. لكن صخرة الإيمان تقف صامدة في وجه كل موجة مهما بلغت من القوة .. و نقف نحن بدورنا و نقول : (أقلام الردة .. أما آن لها أن تنكسر ؟!) .

لذا كان جديراً بنا أن نهتم بأدبنا ، وأن نساير التطورات وفق عقيدتنا .. دون أن تجرفنا تيارات المذاهب الوافدة .. و طبيعي وحال الأمة كما نرى أن يظهر أناس يتنكرون لأمتهم وعلومها وآدابها .. وأن ينزلقوا في فخاخ الأعداء الذين ما فتئوا يشوهون الإسلام بأساليب متعددة .. تنم عن الاستهزاء والسخرية .. و هم يتيهون في سكرتهم وعربدتهم .. حتى تجرأوا على الذات الإلهية .. فصوروا الرب عز وجل و وصفوه بما لا يليق بجلاله و عظمته .. و ذلك لما وجدوا في الأدب من فسحة للدس والكيد و مدخل لتقديم السموم المختلفة من أساطير و خرافات .. حيث إنه أبعد

ما يكون عن البحث العلمي الجاد ولا سيما القصة والمسرحية .. ناهيك عمّا للأسلوب الأدبي من تأثير بالغ ..

ونستمر أحبتي في الله في ذكر النماذج من الشخصيات المختلفة والتي تم تسليط الضوء عليها لتكون تحت المجهر .. و مع : **(نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل العالمية في الأدب !!) .**

هو الأديب المشهور .. والكاتب الروائي المعروف .. نجيب محفوظ بن عبد العزيز السبليجي ، الحائز على جائزة نوبل العالمية في الأدب .. ولد وبالتحديد في (11/ديسمبر/1911م) . نشأ و تربى وسط رفاق كما يصفهم : (كان أصدقاء العباسية مجموعة متناقضة ، فيها كل نوعيات البشر ، من أسماها إلى أدناها .. فقد كان بينهم بلطجية .. و برمجية .. والعلاقة بيننا كانت حميمة) . وكثيراً ما كان يذكر أصدقاءه هؤلاء ، بل ولا يستحي من ذكرهم فقد كانت تجمعهم الرغبات المكبوتة والتطلع إلى الرذيلة .. و هذا يدل على أنه لم يوفق في اختيار نخبة طيبة ترشده إلى طريق الصواب .. و هؤلاء الرفقة هم الذين نجدهم في رواياته ، فكان بالنسبة إليهم مثل المرآة التي أظهرت أجسادهم العارية و وجوههم القبيحة التي حاولوا إخفاءها .. وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن نجيب محفوظ ، فإذا ما كان يصور أصدقاءه في رواياته و هو يعيش معهم ، فأي شخصية يمثل هو في رواياته ؟!

و قد كان كثيراً ما يذكر أنه كان محباً للموسيقى ، وأنه قد تربى على الغناء منذ صغره ، و درس الموسيقى كما يدرس أي علم فاضل ، فضلاً عن تردده على دور البغاء والسينما .. و لم يذكر يوماً أنه كان يتردد على حلق الذكر أو أنه تعب على حفظ القرآن والدعوة إلى الإسلام والتضحية في سبيله .. راجع : نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم لعلي شلق (ص 46) .

و بعد ذلك كله نجد من يقول : إن نجيب محفوظ قد نشأ في أسرة مكتفية متدينة !! وأن ذلك هو الذي حمل الطفل نجيب محفوظ على أن ينغمر في جو الدين .!! راجع : أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب للسيد أحمد فرج (ص 10) .

بعد ذلك توجه نجيب إلى مرحلة التخصص ، فكان اتجاهه أول الأمر إلى الفلسفة ، في أثناء دراسته اطلع على مقالات فلسفية للعقاد وإسماعيل مظهر و غيرهما فأصيب باهتزاز فكري ، وسرت فيه أفكار مريضة حتى إنه قال : خيل لي أنني سأعرف سر الوجود ، و مصير الإنسان بعد تخرجي . لقد كان متوافراً على قراءة الأدب العالمي ، لا يفوته جديد ، فكان جل همه التزود من الثقافة الغربية .. وطبيعي والحال هذه أن يتأثر بأولئك المنحرفين الضالين عن الصراط المستقيم ، خاصة وأن ثقافته الدينية ضحلة جداً .. إلا أن سلامة موسى - كاتب مصري ملحد الفكر علماني الاتجاه من مؤلفاته : نشأة الفكر عند الله - ، كان أكثرهم تأثيراً فيه ، بل إن تأثير سلامة موسى كان أقوى من تأثير جيل الرواد كـ (طه حسين) مثلاً و (العقاد) و غيرهما .. فسلامة موسى هو الذي قاده و رسم له حياته وأنار له دروبها و هو الذي وجهه إلى الفرعونية المصرية بدلاً من العربية الإسلامية ، وإلى الواقعية الاشتراكية العلمية .. ووضع كل حواسه في المرأة .

إن انحرافات نجيب الاعتقادية أكثر من أن تحصر .. يتخفى مرة وراء الرواية الأدبية ليلقي السهم تلو السهم مستهدفاً قلب العقيدة .. وهو الإيمان بالله تعالى .. هذا الإله الذي رمز له نجيب بأشخاص جعل منهم مثاراً للسخرية والتندر .. ومبعثاً للهُزء والكره ..

ففي روايته الشهيرة (أولاد حارتنا) التي اعتبرها أحب أعماله إليه والتي من أجلها كافأه اليهود بجائزة نوبل ، رمز إلى الإله سبحانه وتعالى بشخص سماه (الجبلاوي) وأعطاه في الرواية دور رجل متسلط على أهل الحارة ، و له أعوانه الذين يسيطر بهم على سكان الحارة ، و هؤلاء الأعوان هم الأنبياء الذين رمز لكل واحد منهم باسم و شخص !! .

وله رواية باسم (الطريق) رمز فيها إلى الله سبحانه و تعالى برجل اسمه (سيد الرحيمي) متطاولاً على الذات الإلهية ، ولا شك أن عقائد الإيمان لا تساوي شيئاً عند نجيب محفوظ ؛ و يدل على ذلك أن له رواية بعنوان (الثلاثية) وهي من أقذر الروايات التي تتحدث عن الجنس والرذيلة ، والتي صرّح فيها بأنه عبّر عن آرائه الشخصية من خلال أحد أبطال القصة و هو (كمال عبد الجواد) ، حيث أورد على لسانه كثيراً من قناعاته ، و وصفه في القصة بقوله : (كان كأنما يود أن ينعي إلى الناس عقيدته ، لقد ثبتت عقيدته طوال عامين أمام عواصف الشك التي أرسلها

(المعري) و (الخيّام) حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية ، فكانت القاضية) ، ثم قال على لسانه : (على أنني لست كافراً .. لا زلت أؤمن بالله ، أما الدين .. إن الدين ذهب .. كما ذهب رأس الحسين) !!

فهو هنا يصرح عن زندقة ظاهرة ، عندما يزعم أن الإنسان يمكن أن يظل مؤمناً بالله دون أن يؤمن بأي دين ..

فطريقته المفضلة في بث عقائده الباطلة أن يوردها على ألسنة أبطال رواياته ، وهذا ما حصل منه أيضاً في رواية له باسم (الحرافيش) حيث ساق فيها على لسان (عاشور الناجي) كل ما أراد من فلسفات وآراء منحرفة ..

وعندما يواجه نجيب محفوظ بجرائمه الفكرية الكفرية .. يردد هذه العبارة : (لا يوجد فهم نهائي للعمل الأدبي !!) .

إنها إذن باطنية جديدة تتدثر بالأدب ، وغواية تتستر بفن الرواية ..

و لعله و قد آن للقلم أن يستريح من تدوين هذا العفن و هذا الفكر ، أن أشير إلى أن الأديب أو الكاتب عندما يكتب الكلمة ، فهو يعبر بها عن خلجات نفسه وتأملات فكره ، وحصيلة تجاربه ، و تخيلاته وخواطره .

فالكاتب لا يشرع في إشهار قلمه إلا إذا كان هناك دافع نفسي يدفعه إلى الكتابة و هو إشباع رغبة لديه في التعبير عما يريد و عما يتمناه .. و من هنا وانطلاقاً من العلاقة الوطيدة التي تربط بين الأدب و العقيدة فإن أعمال الفنان تعبر عن عقيدته كائناً ما كانت هذه العقيدة ..

و يؤكد نجيب محفوظ هذا بقوله : (إن الأديب يختار شخصياته ؛ لأنه وجدها صالحة للتعبير عن شيء ما في نفسه ، كأنه يجدد شخصية تتسم بالضياع ، و كان الأديب وقتها يشعر بالضياع ، أو شخصية ثائر و كان وقتها يعاني من ثورة مكبوتة) . أدب نجيب محفوظ أحمد فرج (ص 56) .

فكل ما جاء في أعماله يُسأل عنه ، ولا تُسأل الشخصية ؛ لأنه جاء بها لتقول ما يريد في نسق الرواية ، و من هنا لا بد من نظرة فاحصة و متعمقة في قصصه و رواياته ، كيما نصل إلى دفين فكره و منخول عقله ، و مهما أطلنا النظر فلن نجد سوى العشق

العارم للاشتراكية العلمية التي عرضها في صورة تغري بإحلالها بدلاً عن كل موروث ، و تلك الأطروحات والمسوغات لإباحة الرذيلة التي غدت قاعدة أعماله ، فلولا الانحراف – كما يقول – لما كَتَب ، فالجنس شيء ضخم جداً في الحياة بل هو الحياة ذاتها . أدب نجيب محفوظ (ص 53) .
راجع للأهمية الكتب التالية :-
1 – أدب نجيب محفوظ و إشكالية الصراع بين الإسلام والغريب / السيد أحمد فرج .
2 – أقلام مسمومة تهاجم الإسلام / علي عبد العظيم .
3 – أولاد حارتنا فيها قولان / محمد جلال كشك .
4 – الطريق إلى نوبل عبر حارة نجيب محفوظ / محمد يحيى ، و معتز شكري .
5 – كلمتنا في الرد على أولاد حارتنا / عبد الحميد كشك .
6 – دراسة المضمون الروائي في أولاد حارتنا لنجيب محفوظ / عبد الله محمد المهنا .

تعليق :

الإخوة الأفاضل : بالنسبة للمراجع الأساسية التي تخص نجيب محفوظ ، و طلبكم أن أوثق كلامه من كتبه ، هو في حد ذاته مهم ، لكن عندما تنقصك تلك المراجع فإنك تضطر أحياناً إلى الإحالة إلى المرجع الذي نقل منه .. و هذا الذي حصل لي في بعض مواضيع نجيب محفوظ و طه حسين ..

أما و قد طلب الإحالة فإني سأحيل إلى بعض رواياته بالصفحات و يقوم القارئ بعدها بالرجوع إلى تلك الصفحات و يجد تلك السموم و تلك الخزعبلات وتلك الزندقة مبثوثة في طيات و ثنايا رواياته ..

انظر على سبيل المثال : المواضيع المتعلقة بالجنس و الرغبات المحرمة في رواية : الحب تحت المطر (ص 93) و رواية القاهرة الجديدة (ص 20 ، 45) و رواية خان الخليلي (ص 187 – 190) و رواية قلب الليل (ص 85) و رواية ثرثرة فوق النيل (ص 86 – 88) و في غيرها من الكتب ..

أما بخصوص اختيار الشخصيات التي تعبر عن الواقع و عن نفسيته و اعترافه هو بذلك فراجع : مجلة الشباب ، عدد إبريل 1989م (ص 22) .

أما تخريفاته و زندقته في أمور الدين فإنك ستجدها في الروايات التالية : رواية قلب الليل (ص 132) و رواية الحرافيش (ص 20) و رواية الباقي من الزمن ساعة (ص 137) و رواية السكرية (ص 132 ، 152) و في غيرها من رواياته ..

و الحمد لله رب العالمين ..

محمد علي باشا

سأريح القارئ في هذه المقالة من نتن ما يتلفظ به أمثال طه حسين و نجيب محفوظ .. و سآخذه في رحلة عبر الزمن .. لكنها ستكون رحلة في سيرة و حياة شخصية قد تكون معروفة عند الجاهل والمتعلم .. إنها شخصية باني مصر الحديثة !! كما يسمونه .. إنه (محمد علي باشا) .. و التي ستكون تحت المجهر هذه المرة ..

إن مصر الإسلامية كانت و لا تزال مطمع الكثير من ذوي المطامع والمصالح الشخصية .. ولن نطيل الحديث عن أولئك القوم ، ويكفي للقارئ الحصيف أن ينظر نظرة فاحص إلى آثارهم فسيرى ما يدهشه .. إن الأدوار التي قام بها بكوات مصر على مر العصور وإخلادهم إلى النصارى و تعظيم شأنهم .. لا يكاد يذكر بالنسبة لما قام به محمد علي باشا .. ذلك الرجل المفتون بالغرب ، والمتيم بمتابعة الأوربيين ، والسير على خطاهم .. والذي ما فتئ خلال فترة حكمه الطويلة التي بلغت خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولى الكفار و يصانعهم ، و يعلي من شأنهم ، ويقوم باتباعهم والاقتباس من نظمهم و قوانينهم ، والسير في ركابهم ، مع شدة بطشه وتنكيله بالمسلمين ، واستهانته بهم ؛ لذا لم يكن لنا بد من أن نقف بعض الشيء للحديث عن هذه الشخصية التي تعد أظهر مثال على تخطي عقيدة الولاء والبراء وعلى ضربها في الصميم ، وتعتبر سابقة في المضمار التغريبي الذي يناقض هذه العقيدة و رائدة له في العالم الإسلامي .. و يكفي في ذلك ما أورده الجبرتي المعاصر لهذه الشخصية ، و ما سجله عليها من سيئات ، و ما رصدها به من تحركات مشبوهة .. وانتهاكات مكشوفة ، مع أن الجبرتي يقف بتاريخه عند نهاية سنة (1236هـ) أي بعد حوالي ستة عشر عاماً

من ارتقاء محمد علي لعرش مصر ، و هي في نظرنا فترة كافية استطاع خلالها أن يسبر غور شخصية محمد علي ويعرف مداخلها و توجهاتها ، و يلم بتطلعاتها وأهدافها ، و قد انتقد كثير من المؤرخين ذوي المنهج الاستشراقي الجبرتي في إسرافه كما يقولون في نقد محمد علي ، و قالوا : (إن الجبرتي لم يعش ليرى ثمرة ما قام به محمد علي من أعمال عظيمة) . و هذا واضح مع تأثير الميكافيليلة ؛ إذ يبررون الوسيلة بالغاية ، هذا على فرض أن غايته كانت نبيلة ، مع أن هذا خلاف الواقع كما سنرى ..

و قد استمر محمد علي بعد وفاة الجبرتي في سدة الحكم حوالي تسعة وعشرين عاماً لم يدركها الجبرتي ؛ لأنه قد توفي عام (1237هـ) على المشهور من الروايات ، بعد أن قتل ولده فبكاه كثيراً حتى ذهب بصره ، و لم يطل عماه ، فقد عاجلته وفاته مخنوقاً بشارع شبرا ، و نظراً للآراء الجريئة التي أطلقها في تاريخه ضد محمد علي باشا ، و عدم تملقه إياه و ممالأته له ، ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن محمد علي كان وراء تلك الجريمة البشعة ؛ خصوصاً أنه كان خارجاً لتوه من قصره بشبرا ، و كان الجبرتي يشغل منصب إفتاء الحنفية في عهد محمد علي ، و قيل أن محمد بك الدفتردار و هو صهر محمد علي كان يحقد عليه فدس له من قتله ، و تلك حجة أخرى تدين محمد علي لمكانة الدفتردار منه ، ولا يبتعد أن يكونا متواطئين . انظر ترجمته في الأعلام (3/304) .
عمل محمد علي في تلك الفترة التي لم يدركها الجبرتي ما لم يكن يخطر على بال الجبرتي من الأعمال وأضعاف ما انتقده عليه و سجله في تاريخه ..

و الآن ننتقل إلى عقيدة الولاء والبراء وموقف محمد علي منها ، لنرى كيف كان يتعمد تحطيمها وإزالتها من قلوب المسلمين و نفوسهم ولو بالقوة والنار ، ليرضي أسياده الصليبيين ، و ليخضع أمته و شعبه المسلم للمخططات الصليبية واليهودية .. ونحن بعد ذلك نومئ إيماءات سريعة لضيق المقام و تمشياً مع المنهج الذي أسير عليه في طرح الموضوع ..

فمن ذلك بيعه للغلال والحبوب إلى الإنجليز و غيرهم من الإفرنج حتى شحّت الغلال وغلت الأسعار و خلت منها الأسواق ، بل أمر بمداهمة البيوت والدور لكبس الأقوات المدخرة بدون ثمن ، لسوقها إلى الكفار الإنجليز الذين كانت تجوب أساطيلهم البحار

لضرب المسلمين والتربص ببلادهم ، والاستعداد للاستيلاء عليها . عجائب الآثار (3/342 ، 363) .

وأحدث مكوساً جديدة ، و فرض ضرائب باهظة ، حتى لقد ارتفعت الأسعار بشكل عظيم ، وزاد ثمن كثير من البضائع إلى أكثر من عشرة أضعاف ثمنها ، و حل الكرب والضيق بالمسلمين ، و أوذوا في معاشاتهم وأرزاقهم إيذاء عظيماً . عجائب الآثار (3 /371) . يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، و من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به) . مسلم برقم (1828) .

و إن كان بكوات مصر الذين سبقوا محمد علي إلى سدة الحكم قد ركونا إلى بعض النصارى واتخذوا منهم بطانة من دون المؤمنين ، فإن محمد علي كان قد اعتاد أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود ، الذين قد تغلغلوا في حكومته وبلاطه ، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته و جلساؤه و أهل مشورته ، و شركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها ، والذين ليس لهم شغل إلا فيما يزيد مكانتهم و حظوتهم عند مخدومهم و موافقة أغراضه ، و تحسين مخترعاته ، و ربما ذكروه ونبهوه على أشياء تركها أو غفل عنها من المبتدعات ، و ما يتحصل منها من المال والمكاسب . عجائب الآثار (3/548) و قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين لزكريا سليمان (ص 159) .

و قد أظهر الجبرتي رحمه الله ألمه وتأسفه لما وصل إليه حال الكفار والمكانة التي تبوءوها في عهد محمد علي ، وأنهم صاروا أعيان الناس و يتقلدون المناصب الرفيعة ويلبسون ثياب الأكابر ، و يركبون البغال والخيول المسومة والراهوانات وأمامهم و خلفهم العبيد والخدم ، و بأيديهم العصي يطردون الناس و يفرجون لهم الطرق – و هذا بدلاً من تضييقها عليهم كما جاء في الحديث الصحيح : (لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه) الترمذي برقم (2700) – و يتسرون بالجواري بيضاً و حبوشاً ، و يسكنون المساكن العالية الجليلة و يشترونها بأغلى الأثمان . عجائب الآثار (3/623) .

و من البديهي بعد أن قد أحاط محمد علي نفسه ببطانة من اليهود والنصارى ، أن يعتمد عليهم كثيراً وأن يسند إليهم عدداً

كبيراً من المناصب الهامة في الدولة ، و مع ذلك فلولا خوفه و خشيته من إثارة المسلمين وتألبهم عليه لاعتمد عليهم بالكلية ولأسند إليهم جميع المسؤوليات والمناصب دون موارارة . و هذا ما عبر عنه محمد علي بنفسه حين هلك كاتب الخزينة في عهده وكان رجلاً نصرانياً يدعى عبود النصراني ، و كان محمد علي يحبه و يثق فيه ويقول عنه : لولا الملامة لقلدته الدفترداریة . تاريخ الجبرتي (3/602) .

والملامة التي كان يخشاها محمد علي هي جزء من بقايا هذه العقيدة الطيبة في نفوس المسلمين من بغض للكفار ومعاداتهم ، تجعل الباشا المفتون بهؤلاء يتوقف بعض الشيء في ولائه السافر لهم ، و في نقل مسيرته التغريبية بالأمة . أما في زماننا هذا فقد خفت صوت هذه العقيدة إلا عند قلة من الناس ، فلم يعد الحكام يخشون من ملامة أحد فيما يقومون به في وضح النهار من ولاء للكفار و تبعية مخزية لهم ، بل كثيراً ما تصفق لهم الشعوب لأجل ذلك .

أما إدارة الجمارك في عهد محمد علي و هي من الوظائف المهمة ، فقد كان يرأسها رجل نصراني له أعوان و جند كما يقول الجبرتي يحتجزون أمتعة الناس ، و يقبضون على المسلمين ، و يسجنونهم ، و يضربونهم حتى يدفعوا ما عليهم ، و من العجب على حد قوله أن بضائع المسلمين يؤخذ عشرها و بضائع الإفرنج و النصارى ومن ينتسب إليهم يؤخذ عليها من المائة اثنان ونصف . عجائب الآثار (3/371) .

و قد أصبحت مصر في عهد محمد علي و بالذات القاهرة محط نزول الكافرين من كل جنس ، و ذلك باستدعائه لكثير منهم ، و فتحه المجال أمام استثماراتهم ، مما جعل البلد تضيق بالسكان وتغص بالقادمين من الكفار الذين ضايقوا المسلمين في معايشهم حتى الإنسان ليقاسي الشدة والهول إذا مر بالشارع من الازدحام الشديد ، و بالإضافة إلى طوائف اليهود والنصارى فقد استدعى أعداداً غفيرة من الدروز و النصيرية وغيرهم من الفرق الخارجة عن الإسلام . عجائب الآثار (3/568) .

و كثيراً ما كانت تحدث الاضطرابات و تشيع الفتن والمصادمات و خصوصاً بسبب ثورات العسكر المتلاحقة لقطع المرتبات وغير ذلك ، وكان الشعب هو الضحية لتلك الثورات المحمومة .. ففي إحدى تلك الثورات العسكرية التي نهبت فيها الأسواق وحطمت خلالها الحوانيت ، أراد المسلمون في أثنائها أن يحصنوا بعض

الحارات النافذة و يقوموا بإغلاقها حتى يقطعوا الطريق على جموع العساكر الهائجة ، و لكن كتخدا الباشا – بمعنى نائب الوالي – منعهم من ذلك ، في نفس الوقت الذي كان محمد علي يمد فيه النصارى بالبارود وآلات الحرب ، بعد أن أتموا تحصين جهاتهم على أكمل وجه ، و هذه الواقعة تغني عن أي تعليق ، و تدل على مدى العلاقة المريبة في الخفاء بين محمد علي و نائبه من جانب و بين النصارى من جانب آخر . و مم ينبه عليه أن هذه الثورة العسكرية العارمة كانت بسبب محاولة محمد علي إدخال ما يسمى بالنظام الجديد في الجيش الذي لا يعني سوى نقل النظام الأوربي الأفرنجي برمته إلى مصر ، و من الغريب في الأمر أن محمد علي قد قام بتعويض المنهوبين مع شدة ظلمه و ذلك خشية اجتماع الأهالي مع العسكر ضده – كما يقول الجبرتي – في وقت هو في أشد الحاجة لكسب الناس لتنفيذ خطواته التغريبية . عجاب الآثار (3/487) .

و حين قام محمد علي بإجراء واسع النطاق لهدم الدور و المساكن التي بها شيء من الخلل ، كانوا يأمرون صاحب البيت الذي تم الكشف عليه بهدمه ثم تعميره ، وإن كان يعجز عن ذلك فإنه يؤمر بإخلائه ، و يعاد بناؤه على طرف الميري وتصير من حقوق الدولة ، فهدمت مئات الدور التي كان يملكها أو يسكنها المسلمون . عجائب الآثار (3/521) .

ويمتد حبل الموالاة والمودة للكافرين في عهد محمد علي إلى شيء آخر له خطورته البالغة ، هو فتحه البلاد على مصراعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب ، واكتشاف الآثار ، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم و تذليله الصعاب في طريقهم . عجائب الآثار (3/571 ، 617) .

وإذا تجاوزنا هدفهم الرئيسي لتلك العمليات والتنقيب ، و هو وضع أيديهم على مراكز الثروة ودراستهم للمواقع دراسة تخطيطية ، مما أفادهم ولاشك في احتلال مصر فيما بعد عام 1882م ، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنقبين كانوا من الإنجليز . فإن هناك أهدافاً أخرى قد تفوق ما ذكرناه خطورة لم يفطن لها كثير من الباحثين ، وندع الكلام لأحد المستشرقين ليكشف لنا هذه الأهداف البعيدة ، يقول أحد المستشرقين في كتابه (الشرق الأدنى مجتمعه و ثقافته) : إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام ، و لسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل

الإسلام ، و لكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام و بين تلك الحضارات .. انظر كتاب : واقعنا المعاصر (ص 202) .

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسر اهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً و عرضاً ، وإنفاقهم الأموال الطائلة في كشف الآثار وتعريتها بدءاً بالفرنسيين ثم الإنجليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة . والداهية أن يقوم كثير من الباحثين والأدباء بترجمة لرحلات الكثيرين من هؤلاء الأوربيين الصليبيين الذين لم يتركوا بلداً إسلامياً إلا وطئوه بغية ما ذكرناه من الأهداف السابقة ، و ينعتوها بأنها رحلات موضوعية ونزيهة هدفها خدمة الإنسانية ونشر العلم والمعرفة فحسب !! دون النظر إلى دين أو جنس !! ولكن سرعان ما يدهشك ما تجده في طيات هذه الرحلات من حقد صليبي دفين على الإسلام وأهله ، وعبارات مليئة بالسم الزعاف ، و بعضهم كان يظهر صليبيته صراحة كما فعل الرحالة اليوت واربرتون في كتابه (الهلال والصليب) و كثير منهم يحاول عدم إظهار شيء من ذلك ، و لكن تأبى عليهم صليبيتهم الحاقدة التي رضعوها مع لبن أمهاتهم محاولة إخفائه ، و تفضح ما ادعوه من موضوعية وتجرد .

يقول الشيخ محمد قطب : و لكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم و هم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام و بين تلك الحضارات تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام . واقعنا المعاصر (ص 202) . و يذكر الشيخ محمد قطب حافظ إبراهيم مثالاً لهؤلاء الذين نجح الصليبيون في ذبذبة ولائهم بين الإسلام و بين النعرة الفرعونية ، فمع شعر حافظ الإسلامي الكثير ، فإن له شعراً يفتخر فيه بالفراعنة وآثارهم ، و ينتسب فيه لغير الإسلام ، كقوله : أنا مصري بناني من بنى ** هرم الدهر الذي أعيا الفنا . وأصبح مثير من أبنائنا المسلمين ينتسب ليس للإسلام ، و لكن لأمم جاهلية بائدة عفى عليها الزمن ، و يحني رأسه خجلاً إذا نسب إلى الإسلام .**

بذلك يكون محمد علي باشا قد ساعد هؤلاء الصليبيين في تنفيذ مخططاتهم والوصول إلى أهدافهم بفتحه البلاد لهم شرقاً و غرباً يجوبونها بحرية تامة .

يذكر الأستاذ محمد قطب أن فرنسا قد احتضنت محمد علي احتضاناً كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها ، حيث أنشأت له جيشاً مدرباً على أحدث الأساليب ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ وكان ذلك بإشراف سليمان الفرنساوي ، وأنشأت له أسطولاً بحرياً حديثاً و ترسانة بحرية في دمياط وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر ، و كل ذلك كما يقول الأستاذ ليس حباً في شخص محمد علي أو حباً في مصر ، وإنما كان ذلك لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بعد أن اضطرت للرحيل ، و كان ذلك المخطط الخبيث يرمي إلى عدة أمور منها : القضاء على الدولة العثمانية ، والقيام بتغريب العالم الإسلامي عن طريق تغريب مصر – بلد الأزهر . انظر : واقعنا المعاصر (ص 205) .

و هو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي في قوله : كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر . انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين (ص 182) .

وقد قام محمد علي بالدور خير قيام ! فإن الجيش الذي صنعته له فرنسا وقام بتدريبه سليمان باشا الفرنساوي قد استخدمه محمد علي لا في محاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية فحسب ، بل في محاربة الدولة نفسها ! وقد كاد أن يقضي عليها لولا تدخل بريطانيا خوفاً من استئثار فرنسا بصداقة السلطان ، و بالنفوذ في مصر ، وفي الوقت نفسه لتخدم الهدف العام للصليبية بطريقة أخرى ؛ فقد أوقفت بريطانيا محمد علي عند حده في الظاهر ، ومنعته من مهاجمة الدولة ، وفي الوقت ذاته ضمنت له الاستقلال الفعلي عن الدولة ، والاستئثار بحكم مصر حكماً وراثياً ينتقل في ذريته ، مع التبعية الاسمية للسلطان !! هذا بينما تجمعت أوربا الصليبية كلها لتحطم محمد علي في معركة نافارين لأنه نسي نفسه وتجرأ على مهاجمة دولة صليبية هي اليونان ، فقد كبرته الصليبية وسلحته لمحاربة الإسلام فقط ، فإذا فعل ذلك فله كل العون ، وأما إذا هاجت أطماعه لحسابه الخاص ، فمس أحد الصليبيين بسوء ، فنها يجب تأديبه ، بل تحطيمه تحطيماً كاملاً إذا لزم الأمر . أنظر واقعنا المعاصر (ص 207) .

على أن الجرم العظيم الذي تولى كبره محمد علي باشا هو قيامه بضرب الاتجاه الإسلامي السلفي في الجزيرة العربية بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين

الشريفين ، واخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً مصالحها ، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر . انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين (ص 189) .

وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيين وبعض النصارى . نفس المصدر (ص 187) .

وقد سرّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر ، و كذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية . انظر : الخطط التوفيقية (10/177) ومن ذلك بالطبع ضرب الاتجاه السلفي في الجزيرة العربية .

أما تغريب العالم الإسلامي فقد عمل محمد علي على تحقيقه بفرض سياستين تغريبيتين ، كانت الأولى تقضي بابتعاث الطلاب الشبان وإرسالهم إلى أوربا لتعلموا هناك .

وكان هذا – كما يقول الأستاذ محمد قطب – أخطر ما فعله في الحقيقة .. لأنه من هناك بدأ الخط العلماني يدخل ساحة التعليم ، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الإسلامية .. وقد كان من هؤلاء المبتعثين الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي إمام إحدى البعثات وشيخها ، والذي عاد حاملاً معه بذور التغريب والعلمنة كالدعوة إلى تحرير المرأة ، وأخذ يسهم في زعزعة عقيدة الولاء و البراء بإغراقه في مديح أوربا الكافرة والثناء عليها في كتب كثيرة لعل من أبرزها كتابه في مدح باريس . انظر : واقعنا المعاصر (ص 207 ، 209) .

وقد كاد أن يتم إرسال أطفال بين الثامنة والتاسعة إلى أوربا ، واشترط نوبار باشا وهو سكرتير إبراهيم باشا ولي عهد محمد علي و نجله الأكبر أن يفصل بعضهم عن بعض في المعيشة أو يوضع كل اثنين في غرفة صغيرة . انظر : تاريخ التعليم في عصر محمد علي (ص 432) ، و طبعاً هذا الفعل يسهل صهرهم تماماً في المجتمعات الأوربية ، وما عسانا كنا ننتظر من هذا السكرتير الصليبي .

لكن هذا المخطط الخبيث أوقف بسبب هلاك إبراهيم باشا حتى جاء الخديوي توفيق ونفذ ذلك المخطط وبدا بإرسال نجليه الأميرين عباس حلمي و محمد علي إلى سويسرا وكان عمر

الأول اثني عشرة سنة والثاني عشر سنوات . المصدر نفسه (ص 433) .

أما السياسة التغريبية الثانية التي سار عليها محمد علي فهي إنشاء نظام تعليمي جديد على نسق الأنظمة التعليمية في الغرب ، يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : مهما يكن من شيء فقد ظهر لمحمد علي أن التعليم في الأزهر لا يمكن أن يحقق أغراضه .. كما ظهر له أن التعليم الغربي أو التعليم الذي عرفته أوربا في عصره كان وحده الوسيلة لتحقيق أغراضه ، وكان هذا كافياً ليحمل محمد علي أن يحول وجهه عن الأزهر والكتاتيب وينشئ نظاماً تعليمياً قائماً بنفسه ، مقتبساً من الغرب ، و ليس بينه وبين النظام التعليمي القديم إلا ما يكون بين نظامين يقومان جنباً إلى جنب و يتجاذبان تعليم نابتة البلاد . المصدر نفسه (ص 588) .

وإلا فلو كان محمد علي مسلماً حقاً ولم يكن منفذاً لأهداف الغرب ومخططاته لاتجه إلى إصلاح الأزهر والتعليم في عصره بردهما إلى الوضع الصحيح ، ووضع كل إمكانياته التي استغلها في التغريب في سبيل ذلك الهدف الكبير .

و لكن محمد علي قد أصر على السير بالأمة في المضمار التغريبي المؤدي إلى الحياة الغربية وأساليبها و ثقافتها ، فقرر نظام تعليمي كامل من المرحلة الابتدائية إلى المراحل العليا وفتح المدارس على نمط المدارس الغربية .

وقد لجأ محمد علي إلى طريق الترجمة ، حيث ترجمت كثير من الكتب في مختلف العلوم والقوانين العسكرية والبحرية ، وقام بابتعاث الطلاب إلى هناك واستقدم الأساتذة الأجانب إلى المدارس الجديدة التي أنشأها . انظر تاريخ التعليم في عصر محمد علي (ص 30) .

على أن هناك هدفاً خطيراً يرمي إليه محمد علي باشا من وراء إنشاء هذا النظام التعليمي الجديد ألا وهو إلغاء دور الأزهر في المجتمع ومن ثم القضاء عليه بصورة غير مباشرة ، و ذلك حين يقوم بفتح العديد من المدارس ذات المميزات العالمية التي تؤهل الدارسين فيها لتبوؤ المناصب الهامة والأعمال الرفيعة في دولة الباشا . راجع حول ذلك تاريخ التعليم في عصر محمد علي (ص 573) .

و حين أنشأ محمد علي مدارسه الحديثة كان محتاجاً إلى معلمين للغة العربية ، ولم يكن هناك بالطبع غير الأزهر ، لذا فقد اتجه محمد علي إليه وأخذ منه ما يكفي مدارسه و مكاتبه من المعلمين ، فكانوا فريقاً هاماً من موظفي المدارس . المصدر السابق (ص 575) .

و لكن يا ترى كيف كانت معاملته لهؤلاء الأزهريين الذين أعوزته الحاجة إليهم وقاموا بدور كبير في تدريس اللغة العربية وفروعها داخل المدارس التي أنشأها كما يشهد بذلك كل من كتب في التعليم في ذلك العصر ؟

يقول الدكتور أحمد عزت عبدالكريم : وكانت الحكومة تعلم أنهم لم يكونوا يمنحون في الأزهر مرتبات كبيرة ، و لهذا نراها تبخل عليهم بتلك المرتبات وترى أنهم إنما يقومون بمقاصد خيرية ، ثوابها عند ربهم !! فقد كان هناك مدرسون بل رؤساء مدرسين قضوا بمدارسهم اثني عشر عاماً لا يصيبون من الحكومة إلا مائتي قرش في الشهر ، وهو قدر ضئيل يناله خريج مدرسة خصوصية حديث العهد بالوظائف ، ثم هي تبخل عليهم بعد هذا ببضعة قروش تضيفها إلى مرتباتهم . المصدر السابق (ص 575) .

وما ذكر من تبرير ساقط لا يمكن أن يخفي أبداً مقدار البغض والاحتقار الذي كان يكنه محمد علي للأزهر ورجاله ، و هذا يجعلنا نستغرب أن يصدر ذلك من رجل يحسب على الإسلام والمسلمين و يدعيه .. و لكن سرعان ما يزول هذا الاستغراب إذا عرفنا أن القائمين على التعليم في عهد محمد علي كان معظمهم من الغربيين النصارى .

على أن هناك أمراً تجدر الإشارة إليه حول ما ذكر من ضآلة الأجور والمرتبات في الأزهر والتي كان من أهم أسبابها قيام محمد علي بالاستيلاء على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة ، وبالتالي إحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم من رجال الأزهر . انظر : قراءة جديد في تاريخ العثمانيين (ص 179) .

حتى الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين لم تنج من غائلة محمد علي ؛ فقد ذكر الجبرتي رحمه الله أن كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها . عجائب الآثار (3/478) .

وهل يشك عاقل بعد كل هذه الحقائق التي أوردناها أن محمد علي كان صنيعة من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم ؟!

عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء واستخدم سياسة العسف والإرهاب والتنكيل في أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين ، و يقضي عليها قضاء مبرماً .

قام ابنه إبراهيم باشا بإلغاء كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود في كل بلد سيطر عليه محمد علي تحت دعوى المساواة والحرية ، و ذلك في أثناء حكمه للشام من قبل أبيه ، وقام بإعطاء النصارى امتيازات ؛ ومن ذلك فتح محلات علنية لبيع الخمور في دمشق والسماح بحمل الصلبان وشرب الخمر في الشارع . انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين (ص 192) .

وعندما ذهب إليه نفر من علماء الشام يشكون إليه انقلاب الأوضاع ويبسطون أمامه ألمهم من استعلاء الذميين ، و ركوبهم الخيل كالمسلمين ، فلم يكن من إبراهيم إلا أن سخر منهم سخرية مرة وردهم كاسفي البال ؛ إذ نصحهم أن يركبوا الجمال من اليوم حتى يصيروا أعلى من النصارى كافة . انظر : الشرق الإسلامي في العصر الحديث (ص 275) .

أما اليهود فقد شملهم عطف الباشا ، و نعموا بالحرية التي أطلقها لهم والامتيازات التي منحهم إياها . انظر تلك الامتيازات و ذلك العطف في كتاب : رحلة كنغليك هامش (ص 122) .

ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالات التعليمية والاقتصادية والعسكرية إلا أنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه يكره المصريين ويحتقرهم و يزدريهم أيما ازدراء ، كما قال أحدهم : إن محمد علي كان يحب مصر ولم يكن يحب المصريين .

و ليس أدل من ذلك قوله وهو يخاطب الفرنسيين ويفاوضهم على مسألة احتلال الجزائر : ثقوا أن قراري .. لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي تقيد بها قومي .. و تقولون أن مواطني حمير و ثيران وهذه حقيقة أعلمها !! . انظر : قراءة جديدة في سياسة محمد علي باشا التوسعية (ص 84) .

وقد كان محمد علي متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر ، حتى لقد هم – بعد أن جاءته الأوامر بالطبع – أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص ، إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عمليهم ؛ لذا بادروا إلى إلغائها ، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلال . الشرق الإسلامي (ص 311) .

وبعد : فهذه وقفة مع واحد ممن حكموا المسلمين فترة طويلة وعملوا على القضاء على مظاهر هذه العقيدة بشكل مباشر في سياسة العسف والإرهاب ، وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً ، وإن كان الشكل الثاني كانت له آثار بعيدة المدى ، على عكس الأول الذي ما زاد هذه العقيدة في نفوس المسلمين إلا رسوخاً ، واستحق بذلك جد الأسرة العلوية أن يكون رائد التغريب الأول في العالم الإسلامي ، وعلى رأس من لجوا في موالاة الكافرين ، وأمعنوا في اتباعهم و سعوا في تقويض هذه العقيدة العظيمة بكل ما أوتوه من وسائل القوة التي كانوا يملكونها .

أما أولاد الباشا وأحفاده من بعده ، فقد ظلوا يتعاهدون ما غرسه لهم والدهم وجدهم من غراس التغريب والعلمنة ، ويسيرون في نفس الطريق التي مهدها أمامهم ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب وخطب وده .

يقول الأستاذ محمد قطب : كان محمد علي وأبناؤه حتى الخديوي إسماعيل عند حسن ظن فرنسا بهم فأسسوا للنفوذ الفرنسي في مصر .. حتى جاء توفيق فتغير الربان الذي يمسك بالدفة ولكن لم يتغير الاتجاه . واقعنا المعاصر (ص 215) .

ولعل من الإنصاف أن نذكر أن ثالث الولاة من أسرة محمد علي بمصر وهو عباس باشا بن طوسون بن محمد علي الذي تولى الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم باشا أواخر سنة (1264هـ) كان كما يقول المؤرخون : شديد الكره للأوروبيين ، حذراً من

دسائسهم ، أنجد الدولة العثمانية بخمسة عشر ألف مقاتل في حربهم مع الروس المعروفة بحرف القرم ، وقام بنفي السحرة والدجالين والمشعوذين إلى السودان ، وأخذ عليه إغلاق كثير من المعاهد والمدارس لعله رأى في ذلك وضع حد للنفوذ الأوربي ، مات مقتولاً سنة (1270هـ) واختلف في سبب قتله ، ولا يستبعد أن يكون الأوربيون وراء ذلك نتيجة لموقفه منهم . انظر : الأعلام للزركلي (3/261) .

ومما قاله عباس باشا عن جده محمد علي : لقد كان جدي يعتقد أنه حاكم مطلق ، وقد كان كذلك بالنسبة لنا وبالنسبة لخادميه ولأطفالنا ، غير أنه كان مستعبداً للقناصل العموميين . انظر : الوهم والحقيقة في الفكر المصري الحديث (ص 184) .

و الآن نذكر بعض من سيرة أولاد وأحفاد محمد علي على عجالة ..

سعيد باشا قد توالت أعطياته وسخاؤه على منح الإرساليات التنصيرية فوق ما تحلم به من عون وتأييد . انظر : تاريخ التعليم في عصر محمد علي (ص 671) .

أما في عهد إسماعيل باشا فقد صار لليهود وللنصارى بمختلف طوائفهم شان كبير في عهده . انظر : تاريخ التعليم في عصر محمد علي (ص 668 ، 672) .

وإسماعيل هذا كان يسعى إلى جعل مصر قطعة من أوربا كما قال . انظر : الاتجاهات الوطنية (2/190) و واقعنا المعاصر (ص 215) .

حقاً إنها مأساة متكررة ، فكم رزئت الأمة بأعداد من الحكام والقواد الذين لم يكونوا جديرين و مؤهلين لقيادتها ، ومع إخلاص بعضهم إلا أن جهلهم بالعقيدة الصحيحة كان سبباً في إخفاق إخلاصهم ، و نكبة أممهم وشعوبهم .

والحمد لله رب العالمين .. وإلى لقاء آخر و شخصية أخرى تحت المجهر ..

أخوكم : أبو عبد الله الذهبي ..